الفصل الثاني

بابل وأشور حوالي ٢٠٠٠- ١٣٥٠ق.م

ومع أن سقوط أسرة أور الثالثة قد كانت صفة مميزة لنهاية السومريين باعتبارهم كياناً مستقلاً متميزاً سياسياً، ولكننا سوف نواجه مفهوماً مغالطاً إذا اعتبرنا ذلك نوعاً من الانكسار والانهزام للسومريين. وليس لدينا أية شواهد على وجود حالة خصام مؤكدة أو مدركة ما بين السومريين والساميين في العالم القديم، وإن الحوادث السياسية في ذلك الزمن كانت عبارة عن نتيجة وليس سبباً لتلك التغيرات الاجتماعية والثقافية التي كانت لا تكاد تظهر، إلا أنها كانت تعمل وتتقدم في العمل مدة عقود بل قرون وفي نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني ق. م حدثت هناك حركات قامت بها الشعوب السامية الغربية باتجاه الشرق إلى أواسط منطقة ما بين النهرين وبابل. ولكن كان هناك وخلال حكم الإمبراطورية الثالثة في أور كمية لا بأس بها من الاختراقات السلمية باتجاه بابل وذلك كما تظهره الأسماء السامية الغربية التي وجدت في قوائم هيئة الموظفين في المعابد. ولقد استمرت هذه الحركات مدة حوالي قرنين من الزمن وتركت علامات فارقة على ثقافة المنطقة في مظاهرها السياسية والدينية والاجتماعية. أما المهاجرون المشار إليهم والذين أطلق عليهم المؤلفون المعاصرون اسم الكنعانيين الشرقيين أو الساميين الغربيين أو العموريين الذين استقروا في عدد من المراكز القديمة حيث أسسوا ممالك أظهرت بعض الفروق الهامة عن الدول السومرية ذات المعابد فضلاً عن تلك الوحدات السياسية السومرية المستقلة وهي ما يدعى إمبراطورية السلالة الثالثة في اور. وإن إحدى الفروق الرئيسية كانت في مفاهيم قضية امتلاك الأرض. فحسب النموذج

الأصلي للمجتمع السومري كانت أراضي المدينة تخص الإله المحلي، بينما وحسب المفاهيم السامية كان من الممكن أن يمتلك الأرض العشيرة أو الملك أو المواطنون العاديون.

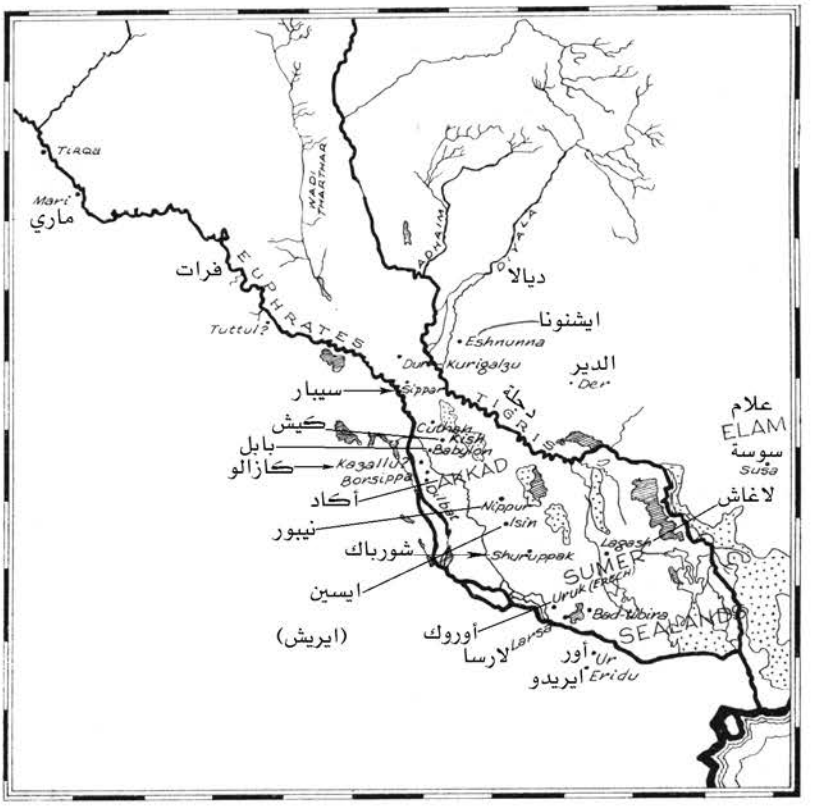

بابل في الألف الثاني قبل الميلاد

هذا وقبل نهب أور، اتخذ عدد من حكام الدول - المدن منصباً مستقلاً ومن بينهم اينسي Ensi ايشنونا Eshnunna على نهر ديالا وحاكم (الدير) وهي مدينة على مقربة من حدود عيلام وكان حاكم المدينة الذي أحرز أخيراً سيادة مؤقتة والذي أصبحت أسرته وريثة للسلالة الثالثة في أور، كان اسمه ايشبي - أيرا من ايسين والذي ربما دام حكمه من عام ٢٠١٧- ١٩٨٥ق.م. ولكن تاريخ وصول ايشبي ايرا Ishbi-Erra إلى الحكم لا يزال مشوباً بالغموض. فقد استمر بالاعتراف بسلطة ملك أور مدة أطول من المدة التي استمر بها أمراء المدن الآخرون ويبدو أنه لم

يعتبر نفسه حاكماً مستقلاً لإيسين قبل السنة الثانية عشرة من حكم ايبي سوين وخلال السنتين أو السنوات الثلاث التالية استطاع أن يمد سلطته لتشمل نيبور المدينة المؤهلة لسيادة سومر. ولا نعرف إلا القليل عن الحوادث في السنوات التالية مع أن الصيغة الزمنية تشير إلى أعمال من التحصينات وتلمح إلى حصول صدام مع الغزاة العيلاميين وإنشاء علاقات دبلوماسية مع عدد من القبائل من البدو الرحل الذين كانوا مندفعين نحو منطقة ما بين النهرين. وبعد التخريب النهائي لأور اعترف بشرعية سيادة ايشبي - ايرا على المناطق التي تشمل ارابخا Arrapkha (كركوك الحديثة) في الشمال وتلمون Tilmun (البحرين الحديثة) في الجنوب وهذا يؤيد الرأي الذي يقول إن ايشبي ايرا يُعتبر وريث إمبراطورية السلالة الثالثة في أور.

وبعد ثماني سنوات من خراب أور أصبح ايشبي ايرا في وضع مكنه من طرد الحامية التي كانت قد تركت لحراسة خرائبها. وقد عمل فيما بعد على إعادة بناء المدينة وأعاد تمثال إله القمر نانا Nanna وهو الإله الحارس لأور والذي كان الغزاة قد نقلوه إلى أنشان Anshan ولقد عزز هذا العمل ادعاء ايشبي ايرا باعتباره الوريث الشرعي لملوك الأسرة الثالثة في أور.

لقد تلا ايشبي ايرا خطٌ مباشرٌ من الورثة مدة أربعة أجيال من الحكام الذين لم يعرف عنهم إلا القليل. وهناك دلائل على أنه وخلال الجزء الأول من هذه الفترة، ازدهرت مملكة ايسين وتوسعت وأصبحت بعض الدويلات القريبة المستقلة خاضعة لها، ولقد عاد القانون والنظام في المنطقة التي تسيطر عليها ايسين وبدأت الأحوال المواتية لإعادة التجارة الداخلية والخارجية التي كانت قد ازدهرت في الأسرة الثالثة في اور إلى الظهور. ولكن أول مظاهر الانتكاس ظهرت أثناء حكم الوريث الثالث لإيشبي ايرا وهو ايشمي داجان Ishme-Dagan ١٩٥٣- ١٩٣٥ق.م الذي كان مضطراً للقضاء على بعض الانتفاضات التي اشتملت طبقاً لإحدى التراتيم على التخريب الجزئي لينبور مع أنه احتفظ بالتأكيد بسلطته الملكية على تلك المدينة الهامة بالإضافة إلى أور واريش واريدو بالإضافة إلى مدينة (الدير) والجزء الأكبر من شمال بابل.

هذا وإن التفاصيل حول هذه الاضطرابات قليلة وغامضة وكانت أمواج البدو لا تزال تلازم الاقتحام وهم مذكورون في التراتيل والترانيم حول خراب نيبور. وتلاحظ أول حوادث التقدم في مملكة آشور ضمن هذه الفترة (حوالي ١٩٠٠ ق.م). وسرعان ما قام أحد أمراء آشور وهو ايلوش أوما Ilushuma والذي كان معاصراً في حكمه لسومو ابوم Sumu-abum في بابل باصطناع غزوة على بابل وربما كانت في موقع إلى الشرق من نهر دجلة واحتل أثناء تلك الغزوة (الدير) وادعى أنه قد حرر أور ونيبور، وإن ذكر تحرير نيبور وأور ربما يعود إلى حادثة طرد الغزاة من البدو الذين لم تستطع ايسين أن تتخلص منهم. (فالدير) كانت هامة بالنسبة لأشور بصفتها المدينة الرئيسية الواقعة على الطريق التجارية ابتداءً من عيلام على الجانب الشرقي لدجلة بينما كانت أور هي المرفأ البحري الوحيد لجميع منطقة ما بين النهرين. ولهذا فإنه من المفهوم أن الآشوريين في الداخل الذين كانوا يعتمدون اعتماداً مباشراً على هذه الأمكنة لأغراض تجارية سوف يهتمون شديد الاهتمام أن تكون هذه الأمكنة تحت أيادٍ أمينة. وكانت دولة - مدينة لارسا هي المستفيدة من ضعف ايسين وكانت لارسا هذه واقعة على الفرات ما بين ايريش (وأور) وقد حاول حكامها فيما بعد خلق مملكة مستقلة في الجنوب. وقد بدأت هذه العملية في هذا الوقت نظراً لأنه وفي إحدى العقود التي عقدت من لاغاش لم يكن باسم ايشمي - داجان حاكم ايسين (وهو السيد الاسمي) بل باسم رجل يقال إنه كان حاكم لارسا.

يشار إلى ايشمي داجان في النصوص الأدبية بأنه الملك الذي وطد شأن القانون في البلاد ولكن هذه الجملة ربما تشير إلى نشر التشاريع، مع أنه وفي الوقت الحاضر فإن مجموعة القوانين الوحيدة المعروفة أنها من مخلفات هذه الأسرة هي مجموعة قوانين خليفته ليبيت - اشتار Lipit-Ishtar الذي وجدت شظايا من قوانينه في نيبور وكيش. ويتكلم ليبيت اشتار نفسه عن تحرير المواطنين في بعض المدن وهذا ربما يشير إلى بعض الاصلاحات الاجتماعية التي تهتم بتحرير العبيد.

ومن وجهة سياسية فإن تقطيع أوصال مملكة ايسين الذي بدأ في حكم ايشمي داجان قد ظهر بشكل واضح في زمن ليبيت اشتار. ولكن لا تعرف تفاصيل الحوادث بالضبط ولكن تبرز (لارسا) كمنافس محدد وتذكر الصيغة الزمنية عدداً من العمليات العسكرية قام بها ملك لارسا المدعو جونجونوم Gungunum (١٩٣٢-١٩٠٦ق.م) ومن أشهر تلك العمليات عملية الاستيلاء على (أور) التي استطاعت لارسا من خلالها السيطرة على التجارة الخارجية من البحرين التي كانت التجارة قد انتقلت إليها. وكان هناك أيضاً أنشطة بدائية كثيرة ومن الممتع أن نلاحظ أن الوحدة الدينية في بابل قد تجاوزت الاختلافات السياسية. إذ لم تكن بنات ليبيت اشتار وايشمي داجان هن رئيسات كاهنات نانا في أور تحت حكم جونجونوم بل أيضاً أن خليفة ليبيت اشتار في ايسين قد قام بتكريس بعض الهدايا في المدينة رغم أنها كانت تحت حكم لارسا سياسياً.

لقد وسع خلفاء جونجونوم سلطتهم بالأساليب العسكرية تجاه شمال بابل وبالتالي ابتلاع عدد من المدن وبصورة خاصة نيبور وايريش التي كانت تابعة لايسين سابقاً. وهناك أمر ذو أهمية أعظم وهو الانتباه الذي وجهه حكام لارسا وأسرتهم نحو نظام الري.

ويعزو جيرتيرود بيل للعراق ذلك القول: إن من يستولي على قنوات الري، يمكنه الاستيلاء على جميع البلاد. والحقيقة أن عدم الاهتمام بقنوات الري هو الذي أدى إلى سقوط إمبراطورية الأسرة الثالثة في أور. نظراً لأنه وابتداءً من الجزء المتأخر من تلك الفترة فإنه بينما كانت تنفذ برامج واسعة لبناء المعابد، فإننا لا نسمع إلا القليل عن أعمال عامة تختص بالقنوات.

كان الخليفة الثاني لجونجونوم وهو سومي - ايلوم Sumi-Ilum معاصراً لبداية الأسرة المشهورة المعروفة بالأسرة البابلية الأولى (١٨٩٤- ١٥٩٥ق.م) وقد كانت بابل مدينة صغيرة وهي تحت حكم الأسرة الثالثة في أور وكان يحكمها أحد الاينسي Ensi ولكن لا يعرف فيما إذا كانت جزءاً من المنطقة التي كان يحكمها ملوك ايسين وليس لدينا في الوقت الحاضر أية معلومات حول مؤسس

الأسرة الأولى وهو سومي ـ ابوم Sumi-Abum. هذا وإن اسمه وبعض المعلومات عن المملكة التي أسسها يدل على أنه كان من أصل سامي غربي ولكن لا يعرف فيما إذا كان قد عمل في خدمة أية دولة أخرى من دول منطقة ما بين النهرين أو إذا كان قد استولى على بابل مباشرة بعد خروجه من الصحراء. مع أن إحدى الطقوس التي يؤمن بها تقترح وجود بعض العلاقات مع ايسين. ولقد قضى قسماً كبيراً من حكمه الذي دام أربعة عشر عاماً في تقوية بابل وذلك ببناء التحصينات وبإخضاع عدد من المدن الأخرى في المنطقة لحكمه بالوسائل العسكرية أو الوسائل الدبلوماسية خصوصاً مدينة كيش وسيبار Sippar.

ولقد أدى توسع لارسا في الجنوب وبابل في الشمال حتماً في النهاية إلى نشوء النزاع ما بين هاتين القوتين ولكن لا يمكننا اعتبار النزاع ما بين هاتين الدولتين المدينتين مفتاحاً يؤدي إلى معرفة تاريخ منطقة ما بين النهرين خلال القرن التالي. وابتداء من مملكة ماري على الفرات حتى نهر ديالا والحدود العيلامية كان لا يزال هناك عدد من الدول - المدن التي مع أنه قد قدر لها أن تمتصها وتضمها بابل في النهاية أو تحكمها لارسا وأخيراً إنها سوف تتوحد تحت حكم حمورابي ولكن وفي الوقت الحاضر فندعها تتمتع بالاستقلال وإمكانية التوسع والحصول على مكاسب أرضية. ولقد أنتج ضغط القبائل السامية حوالي نهاية فترة الأسرة الثالثة في أور نشوء سلطة الحكام العموريين في كثير من هذه الممالك - المدن.

وبامتلاك المزار الرئيسي في نيبور الذي كان امتلاكه يتراوح سلباً وايجاباً ما بين ايسين ولارسا، لهذا فلا نستطيع أن نقول إن هناك أية دولة يمكن أن تعتبر بحق أنها هي الحاكم الشرعي لبلاد بابل*.

ولقد عانت لارسا نفسها من نكسة خطيرة عندما غزتها جيوش مملكة كازالو Kazallu وموتيابال Mutiabal هو آخر حاكم ينتمي إلى أسرة جونجونوم طُردْ عن العرش ولكن الجيوش الغازية قد هزمت وعادت قوة لارسا بمساعدة

* أن كلمة Babylon تشير إلى مدينة بابل أما Babylonia فتشير إلى مجمل بلاد بابل.

كودورمابوك Kudurmabuk وهو شيخ ذو اسم عيلامي وقرابات وصداقات عيلامية قوية مع أنه كان منحدراً من أصل عموري. ولقد نصب هذا الشيخ ابنه المدعو واراد سن Warad-sin على العرش وفي أثناء ذلك استمرت ايسين بالتقهقر في أهميتها وأخيراً هزمها ريم ـ سين Rim-sin (١٨٢٢-١٧٦٣) حاكم لارسا وانتهت اسرة ايسين. وكان ريم ـ سين هو أخو وخليفة وارادسين Warad-sin وقد علق ريم سين أهمية عظمى على هذا الحادث الذي جعله الحاكم المطلق للمنطقة الوسطى والجنوبية في بلاد بابل وأصبح الوريث الشرعي لألقاب ملوك الأسرة الثالثة في أور ولقد أرخت الثلاثين سنة الأخيرة من حكمه الذي دام ستين عاماً واشتهرت بهذا الحادث.

لقد حدث تغلب لارسا على ايسين وقهرها في أواخر حكم سن موباليت Sin-Muballit ١٨١٢-١٧٩٣ق.م وهو والد حمورابي. ومع أنه لم يبق سوى بضعة دول مستقلة ومنها ماري وايشنونا Eshnunna، إلا أن هذا قد اعتبر تطوراً محرجاً نظراً لأن هذا الوضع قد تمخض عن زوال الحاجز أو المصد الواقع بين الدولتين الصاعدتين وهما بابل ولارسا.

وهكذا صعد حمورابي إلى العرش (١٧٩٢-١٧٥٠ق.م) وهو على رأس دولة قوية وقابلة للتوسع وتمتد من حدوده حتى الخليج العربي وعيلام وقد كان نجاحه النهائي يرتكز على سيطرته على جميع منطقة بابل وهذا يعود لمهارته الإدارية والدبلوماسية بالإضافة إلى إنجازاته العسكرية.

لقد حصلنا على صورة من النشاط الدبلوماسي في ذلك الزمن من بعض الوثائق التي وجدت في ماري التي كشف عنها في موقع تل الحريري في شرق سوريا. ويعود الاستيطان في هذه المدينة التي تعتبر إحدى المراحل الهامة من الطرق التجارية من أعالي الفرات ما بين الخليج العربي ومنطقة البحر الأبيض المتوسط. إلى فترة (جمدت نصر) على الأقل. ويبدو أن هذا الموقع الذي كان في ذروة أهميته عند بداية الألف الثاني ق.م وقد تمت الحفريات فيه على أيدي علماء الآثار الفرنسيين ما بين عامي ١٩٣٣- ١٩٣٨م. ولقد أظهرت الحفريات عدة لقيات هامة في هذه الفترة. إذ فضلاً عن

المنحوتات الهامة والرسومات الجدارية والأدوات البرونزية، فإن الموقع قد خلف لنا معلومات كثيرة بالنسبة للفنون المعمارية في القصور والمعابد التي كانت شاهدة على الازدهار المادي المرموق وإن أهم من جميع تلك اللقيات من ماري كانت مجموعة من عشرين ألف لوح من الكتابة المسمارية التي تتألف بصورة رئيسية من رسائل ووثائق إدارية واقتصادية وهذه الألواح التي لا تزال في طريق النشر تلقي أضواء قوية على الحوادث في الشرق الأدنى في بداية الألف الثاني ق.م. وكانت ماري ذات أهمية خاصة في تلك الفترة نظراً لأنها كانت الأولى التي شعرت بتأثيرات أية موجة من موجات العموريين الضاغطة وكانت الأولى التي أحدثت تأثيرات حضارية على الغزاة.

لقد تأسست أسرة ماري التي وصِفت في المحفوظات المذكورة على يد شخص يدعى ايشتوب ايل Ishtupil في نفس تلك الفترة وكانت جزءاً من تلك الحركة العرقية المتمثلة بالأسر الحاكمة في ايسين ولارسا وأشور وبابل. وباختصار فإن تاريخ ماري الإقليمي يعود إلى تسلسل حكم وراثي يتخلله فترة من الهيمنة الأجنبية الخارجية وذلك عندما وضع شمسي حدد ملك أشور أحد أولاده نائباً للملك في مدينة ماري ولكن استطاعت الأسرة الوطنية أخيراً استعادة سيطرة ماري ولكن قضى عليها حمورابي بعد الاستيلاء عليها نهائياً في السنة الخامسة والثلاثين من حكمه وتمتلئ محفوظات هذه الفترة بما تذكره عن الأحكام الإدارية والدسائس السياسية والأعمال الرسمية في تلك الفترة . ونقرأ غالباً عن تبادل السفراء بينما تشير المراسلات فيما بين الحكام العموريين والتي وصلت في رسائل ماري، إلى الحركات العسكرية التي تعد بالألوف أكثر منها بالمئات وتشير قوائم الإعاشة المخصصة للضباط والجنود إلى تقديرات إعداد الجنود في ماري التي كانت تقدر بعشرة آلاف كان أربعة آلاف منهم موجودين كحاميات في العاصمة وكانت واجبات هؤلاء الجنود تنحصر في حماية السكان ضد الغزاة من البدو. ويكتب ياسماع - حدد Yasmah-adad حاكم ماري إلى ايشمي داجان Ishmi Dagan أخيه ورئيسه ويقول إن من الألف جندي هناك خمسمائة قد وضعوا لحراسة المدينة والنصف الآخر لحراسة المواشي ولقد كان هناك تعاون اقتصادي وسياسي ما بين الحكام

العموريين إذ عندما أجدبت المراعي في أراضيه طلب نائب ملك ماري من نائب ملك قطنه Qatna أن يسمح بأن ترعى قطعانه في مراعي قطنة وقد وافق نائب ملك قطنة على ذلك الطلب وهناك وثيقة أخرى من ماري تثبت هذه الأوضاع:

(ليس هناك من ملك يمكن أن تعتبره الأقوى. فهناك حوالي عشرة أو خمسة عشر ملكاً يتبعون حمورابي ملك بابل وهناك نفس العدد من الملوك يتبعون ريم سن ملك لارسا وهناك نفس العدد ممن يتبعون ايبال - بي - ايل ملك ايشنونا وكذلك نفس العدد يتبعون أموت بي - ايل ملك كاتانوم وهناك عشرون ملكاً يتبعون ياريم - ليم ملك يامهاد).

إن تاريخ هذه الرسالة من الواضح أنه أبكر من السنة الثلاثين من حكم حمورابي تلك السنة التي أحرز فيها حمورابي انتصاراً على ريم سن وينبغي أن تكون ما بعد السنة العاشرة لحكمه نظراً لأنه وقبل ذلك الزمن كان من الواجب ذكر شمسي حدد ملك آشور في القائمة. فقد كان شمسي حدد واحداً من أعظم ملوك آشور ومن أصل عموري وقد جعل آشور مؤقتاً إحدى أعظم الدول في منطقة ما بين النهرين. وبالتأكيد فقد عاش بعد السنة العاشرة لحكم حمورابي نظراً لأن هناك وثيقة مؤرخة في تلك السنة وهي تقول إنه قد حدث اتفاق يعترف بالتقسيم ما بين شمسي حدد وحمورابي.

يرجع التاريخ المستمر جغرافياً لتلك المنطقة (وليس سياسياً) في آشور في تلك الفترة القديمة المعروفة باسم شوبارتو Subartu على الأقل إلى فترة ثقافة حلف ولقد استبدلت هذه الثقافة بشكل ثقافي يدعى ثقافة عبيد قادم من المنطقة الجنوبية. وأخيراً فقد وصلت الحضارة السومرية إلى أشور ربما بعد عدة قرون من نهوضها لأول مرة في جنوب بلاد بابل ولقد كشفت الحفريات عن وجود معبد يعود إلى فترة الأسرة المبكرة في آشور وتقدم لنا قائمة ملوك أشور، التي وجدت في خورساباد القصص المختصة بالحكام الآشوريين وطبقاً لهذه القائمة فإن أول سبعة عشر ملكاً في فترة ما قبل حكم سرجون (أي قبل ٢٣٧٠ق.م) كانوا رؤساء عشائر بدو رحل نظراً لأنهم قد وصفوا بأنهم كانوا يعيشون في الخيام.

وبالتالي فقد شكلت أرض أشور جزءاً من إمبراطورية سرجون ملك أجادو وبعدها جزءاً من أملاك الأسرة الثالثة في اور. ولكن سقوط تلك الإمبراطورية قد وفر لآشور إمكانية الاستقلال. فلقد توفرت لدينا معلومات واسعة تختص بالتجارة الآشورية مع منطقة أسيا الصغرى وذلك بفضل وجود حوالي ثلاثة آلاف من النصوص التي وجدت خلال نصف القرن الماضي على يد بعض العاملين في الحفريات في كالتيب Kultep في وسط آسيا الصغرى وتمثل كالتيب هذه موقع كانيش Kanesh القديم وهنا كانت توجد مستعمرة من التجار الآشوريين (١٩٥٠ – ١٨٠٠ ق.م)ولقد قدمت شواهد مؤخراً تقترح أن المنطقة كانت فعلاً تحت سيطرة آشور العسكرية ولكن الشواهد قليلة جداً وهناك بعض الصعوبات للافتراض بوجود إمبراطورية آشورية في ذلك الزمن ممتدة إلى مسافات أوسع منها في أية فترة في التاريخ. ولكن من الأمور الأكثر احتمالاً أن المستعمرة التجارية التي كانت تمتلك مؤسساتها البلدية ونظامها القانوني لم تكن سوى مقاطعة محاطة ببلاد أجنبية وكانت تحت حماية أحد الملوك الوطنيين.

وقد كانت هناك بعض المستعمرات التجارية الأجنبية التي تتمتع بالحماية ووجود بعض الامتيازات هذه المستعمرات كانت شائعة في العالم القديم في الألف الثاني والأول قبل الميلاد.

لقد كانت التجارة ما بين كانيش وأشور (يشار إليها في الوثائق باسم المدينة) تجري عن طريق قوافل الحمير تضم كل قافلة حوالي مئتي حيوان. وهناك تفاصيل عن هذه التجارة سوف نذكرها فيما بعد. أما التجارة ما بين بلاد الأناضول ومنطقة ما بين النهرين فإنها تعود إلى ما قبل الفترة التي تذكرها الوثائق، وهذا ما تذكره قصة متأخرة تذكر كيف أن سرجون ملك أغاد وقد قاد حملة عسكرية لمساعدة إحدى المستعمرات التجارية التي كانت تشكو من اعتداءات عليها في آسيا الصغرى.

لقد عملت الثروات المتحصلة من مثل هذه التجارة على وضع آشور في مركز قوي أثناء فترة الانقسامات التي تلت انهيار إمبراطورية الأسرة الثالثة في أور. فقد

كان ايلوشوما Ilushuma وهو أقدم حاكم أشوري معروف يمتلك القوة الكافية بحيث قام بغزوة ناجحة على بلاد بابل إلى الشرق من نهر دجلة حين استولى على (الدير) وهي مدينة واقعة على الحدود العيلامية وموقعها على النهاية الغربية لإحدى الطرق التجارية عبر بلاد فارسولقد اندفع ايلوشوما عبر دجلة بحجة إرساء العدالة والحرية في أور ونيبور ويبدو أن هذه الحملة كانت موجهة لحماية أحد الموانئ الحيوية في الجنوب وهو مرفأ أور ضد موجه جديدة من الغزاة من البدو الرحل. ولقد خلف ايلوشوما ولده ايري شوم Irishum الأول وحفيده سرجون الأول ملك أشور وقد تمتع كلاهما بهيبة مرموقة ولكن ازدهار أشور وقوتها لم تدم طويلاً بعد هذين الحاكمين نظراً لأن الظروف التي خدمتهما قد انتهت فقد كانت القبائل الهندوأوروبية قد بدأت بالتقدم إلى ما وراء القفقاس في اوروبا الشرقية وفي حوالي ذلك الوقت بدأ الحثيون بالاندفاع إلى الأناضول من الشمال الشرقي وكنتيجة لهذه الحركات العرقية فقد وقع النظام والمؤسسات السياسية في آسيا الصغرى في حالة من الفوضى وانتهت تلك العلاقات التجارية الآشورية مع كانيش، ودخلت أشور في فترة من الانحطاط. وتذكر قائمة الملوك الآشوريين اسم الملك نارام سين وربما كان هذا هو حاكم دولة ايشنونا على نهر ديالا. وربما دل هذا على حكم ايشنونا لآشور ولكن ليس هناك ذكر لهذا الحادث في وثائق ايشنونا. مع أن تلك الوثائق تشير أن ايشنونا كانت في أوائل الألف الثاني ق.م دولة مزدهرة ومتوسعة ومع ذلك فقد كانت أشور في ذلك الزمن تابعة لإيشنونا ولكن لفترة وجيزة، إذ وقعت تلك الدولة تحت حكم شيخ من شيوخ العموريين وهو شمسي حدد النشيط والمقتدر (١٨١٤-١٧٨٢ق.م) وكما هو الحال بالنسبة لمعظم مؤسسي الأسر العمورية فإننا لا نعرف إلا القليل عن أجداده. فقد كان والده رجلاً يدعى إيلا كاب كابو وهو حاكم دولة صغيرة في منطقة ما بين النهرين وقد تحالف أولاً مع ياغيد ـ ليم Yaggid-Lim وهو أحد ملوك ماري العموريين ولكنه اشترك بعد ذلك في خصومات مع هذا الملك وبعد أن أمن شمسي حدد موقعه على العرش في آشور حدثت ثورة في القصر في ماري قتل فيها ياهدون - ليم Yahdun-Lim وهو ابن ياغيد - ليم. وليس هناك من إثبات أن

الثورة قد دبرها شمسي حدد ولكن لما كان هو المستفيد الرئيسي منها فإنه أصبح معرضاً للشك بشكل قوي. أما ولي العهد وهو زمري ـ ليم Zimri-Lim فقد هرب والتجأ إلى مملكة يامهاد Yamhad في منطقة حلب وهكذا فقد بسط شمسي حدد سلطته على دولة ماري الغنية والقوية ونصب ابنه الأصغر وهو ياسما حدد Yasmah-Adad كنائب للملك. أما ابنه الأكبر وخليفته على عرش أشور فقد أصبح نائب الملك في دولة تدعى ايكالاتيم Ekallatim. ويبدو أن ياسما حدد كان موالياً ومطيعاً لوالده ولأخيه الأكبر ولكنه لم يمتلك أية صفة من صفات المقدرة الإدارية.

وهناك بعض مراسلات ياسما - حدد ويبدو أنه كان يطلب المساعدة من أخيه الأكبر والأكثر قدرة منه في أوقات الأزمات. ففي إحدى الرسائل نجد أن والده قد وبخه بشكل عنيف لمعاملته غير اللائقة لبعض الأشخاص من الدم الملكي. وفي رسالة أخرى يكتب ياسما حدد إلى والده وينقل كلماته اللاذعة التي يقول فيها إنك لست رجلاً وليس في وجهك لحية وكم من الزمن يلزمك لكي تصبح قادراً على حكم ولايتك؟ وينتقد الوالد ابنه في أمكنة أخرى لكونه يلح في طلب النصيحة حول التصرف في الشؤون الموكلة إليه ويعتبر الوالد أن ابنه الأكبر اشمي داغان Ishme-Dagan هو المثال الذي ينبغي أن يكون عليه نائب الملك في سلوكه. وفي مناسبة أخرى تجرأ ياسما حدد على الطلب من والده إضافة مدينة شوبات شاماش Shubat-Shamash إلى حكمه. ولقد انزعج شمسي حدد الأب من وقاحة ابنه، خصوصاً عندما علق الابن الأكبر على طلب الابن الأصغر وتدخل لكي يسوي بلطف غضب والده بقوله: إن أخي لم يضع مملكة ماري وتوتول في مركز مقبول بعد والآن ها هو يطالب بضم شوبات شاماش إلى ملكه.

لم يدم حكم ياسما - حدد طويلاً في ماري خصوصاً بعد موت والده في السنة العاشرة لحكم حمورابي فقد ظهر زمري ـ ليم وهو الوريث الشرعي لأسرة ماري الملكية وخرج من مكان لجوئه في الغرب وبمساعدة ثلاث دول قوية وهي يامهاد وايشنونا وبابل استطاع طرد ياسما - حدد بعد حكم دام سبعة عشر عاماً. وأن

الأسباب التي أدت بحمورابي ملك بابل وملك ايشنونا لنقل دعمهم من أشور إلى أسرة ماري وإن لم تكن واضحة وكما هو الحال في عدة فترات أخرى في التاريخ حيث توجد بؤر من التوتر في منطقة تحتوي على عدة دول وليس لإحداها أية ميزة تفضلها عن الأخرى عندها تتواجد التكتلات بين الدول العمورية وتتغلب الولاءات الشخصية والعداوات أيضاً في مثل تلك الحالات.

ونتيجة لذلك نجد أن ايشنونا قد تركت اتحاد يامهاد، ماري، وبابل وقامت بإثارة الحروب ضدهم بالاتحاد مع جارها الشرقي وهو عيلام ودولة انداريك الشمالية.

وفي زمن السنة التاسعة والعشرين من حكم حمورابي قام زمري - ليم بعد أن عرف أن بابل قد أصبحت خطراً على استقلاله والتحق ضد القوى التي كانت تساند حليفه السابق حمورابي وقام ضد حمورابي في ائتلاف ترأسته عيلام وايشنونا ولكن استطاع حمورابي أن يهزم هذا الائتلاف ونصب نفسه السيد الوحيد والقوة العظمى الوحيدة في المنطقة بشكل حاسم. ونظراً لأن ريم ـ سن Rim-Sin حاكم لارسا قد سيطر فعلاً على جميع منطقة جنوبي بابل لذلك فقد تواجهت دولتان قويتان وأصبحتا وجهاً لوجه.

ففي السنة التالية هزم حمورابي (ريم - سن) وبذلك أصبح حمورابي الحاكم المطلق في جميع منطقة بابل (١٧٦٣ق.م) ولكن كان لا يزال هناك بعض الدول - المدن البعيدة والمستقلة وقد هزمها حمورابي في السنوات الثلاث التالية وكان هدفه الرئيسي التالي هو الاستيلاء على مملكة ماري. ولقد أصبح زمري ـ ليم تابعاً لحمورابي ولكن بعد سنة اندلعت ثورة واضطر حمورابي أن يهدم أسوار مملكة ماري وأن يطرد زمري ـ ليم.

إن أنشطة حمورابي السياسية والعسكرية قد حولت تلك الدولة - المدينة إلى مركز إمبراطوري ولقد تماشت منجزات حمورابي الإدارية مع نجاحاته العسكرية وتعرف هذه المنجزات من تلك المجموعة من القوانين التي أنشأها ونشرها ومن تلك

المراسلات التي جرت بينه وبين موظفيه. وتقدم لنا مقدمة هذه القوانين بعض الإشارات حول سياسة حمورابي عندما يصف موقف الإلهة بالنسبة إليه (وسوف نتحدث بالتفصيل عن هذه القوانين فيما بعد).

(لقد ظهر حمورابي في هذه البلاد وهو الأمير المحترم الذي يخشى من الإلهة وقد قصد أن ينشر العدالة ويقضي على الشرور والأشرار حتى لا يقدم القوي على ظلم الضعيف وأن يشرق كالإله الشمس فوق أولئك الذين يملكون الرؤوس السوداء (من البشر) ولكي يعم النور في البلاد).

ويذكر كيف أنه بناء على أوامر الإله مردوخ قد :

نشر الصدق والعدالة خلال البلاد فازدهر الشعب.

ويقوم حمورابي بوصف أعماله الرائعة بالتفصيل ويذكر كيف أنه كان يحترم المزارات العائدة للآلهة العظمى في المدن الرئيسية في البلاد وهي نيبور وايريدو وبابل وأور وسيبار ولارسا وايريش وايسين وكوثاه Cuthah وبورسيبا Borsippa ودلبات Dilbat ولاغاسن وماري وأغادي وأشور ونينوى وغيرها. هذا وإننا نجد بعض التبرير لتفاخره من تفاصيل مراسلاته. فلم يعتبر أن أية تفصيلات تعتبر تافهة ولم يعتبر أن أي موظف هام جداً فلا يطاله القانون، لذلك فقد كان حمورابي يقوم بإصدار قرارات واضحة وأوامر تخدم مصلحة بلاده وتتناول استمرار الجودة في حكومته وقد حدث أن كلف أحد الموظفين بتنظيف إحدى القنوات قرب ايريش وقد تأخر في تنفيذ المهمة فأمر حمورابي أن يتم هذا العمل خلال ثلاثة أيام وأن يتم إخباره بذلك. وقد هم بالنظر في الاتهامات باختلاس الأراضي وإرساء العدالة وعندما كانت تصل إلى أسماعه شكوى بوجود الرشوة، كان يرسل رسالة يأمر فيها بإجراء التحقيق في القضية وإذا أكدت المسألة كانت تحدث مصادرات للقائمين بالرشوة ويرسل الشهود والمسؤولون إلى حمورابي. هذا وإن هذا الملك هو الذي أمر بزيادة شهر لكي يتوافق التقويم في السنة القمرية مع الاعتدال الربيعي والخريفي. وقد اتبع سياسة حكيمة في حفر القنوات وذلك لتأمين الازدهار لبلاده من وجهة زراعية. هذا ولسوف

نعالج تفاصيل التنظيمات الإدارية والاجتماعية في مملكة حمورابي فيما بعد في هذا الكتاب.

ولقد وحد حمورابي عدة دول - مدن في سومر وأكاد وقد قدم للبلاد بأجمعها لغة واحدة تختص بالإدارة والعمل. (فلقد استمرت اللغة السومرية بالاستعمال طيلة مدة وجود بابل) وقد وحد الأنظمة القضائية أيضاً. ويضيف البعض أن حمورابي قد أقام في بابل مجتمعاً إلهياً واحداً على رأسه مردوخ إله مدينة بابل ولكن ظهر رأي مخالف يقول إن مردوخ لم يصبح إلهاً وطنياً لجميع منطقة بابل إلا بعد زمن حمورابي.

لقد ظل النموذج الاجتماعي الذي فرضه حمورابي في بابل واستمر حتى نهاية التاريخ البابلي ولكن منجزاته العسكرية لم تدم بعد حمورابي نفسه. فلقد سببت الحركات العرقية الناتجة عن تحرك القبائل الهندو-أوروبية إلى ما وراء القفقاس وقد بدأ الجميع يشعرون بنتائج هذه التحركات. إذ إنه وفي أوائل حكم ابن حمورابي وهو سامسو - ايلونا Samsu-Iluna (١٧٤٩-١٧١٢ق.م) قام جيش كاشي بغزوة ابتدأت من حدود عيلام ومع أن هذه الغزوة قد هزمت ووجهت عن طريق البابليين إلا أنها نجحت أخيراً في الاستيلاء على أور واريش. ولقد أسس هؤلاء الكاستيون لاحقاً أسرة مالكة حكمت بلاد بابل عدة قرون وقد أتى هؤلاء من جبال زاغروس، ومع أن لغتهم لا تنتمي إلى أية مجموعة معروفة، إلا أن بعض معالم مجمع آلهتهم تدل على أنهم كانوا متصلين ثقافياً مع الشعوب الهندو-أوروبية. وتدل هذه الحقيقة أن هجماتهم في هذا الوقت كانت ناتجة عن ضغوط مورست عليهم من قبل بعض الهندو- أوروبيين في الشمال وتظهر الأسماء الشخصية الواردة في وثائق العمل في القرن التالي إن تسرب الكاشيين بشكل هادئ مسالم إلى بابل قد استمر.

لقد حدث تمرد خلال السنة الثامنة والعشرين من حكم سامسو- إيلونا وذلك في جنوب بابل في أماكن المستنقعات لم يستطع إخماده وهكذا ظهرت ما تدعى أسرة الأراضي البحرية التي استمرت في حكم منطقة تتألف من منطقة سومر تقريباً مدة تزيد عن مئتي عام. أما التاريخ السياسي لخلفاء سامسو - ايلونا وهم ابي – ايشو Abi-Eshuh، (١٧١١- ١٦٨٤ق.م) وآمي - ديتانا Ammi-Ditana (١٦٨٣-

١٦٤٧ق.م) وآمي - صادوقا Ammi-Saduqa ١٦٤٦-١٦٢٦ق.م فلم يكن هذا التاريخ سوى حملات على مقياس ضيق وأعمال لإنشاء أسوار دفاعية تدل على الحذر من نشوء هجوم مفاجئ.

تمثل نهاية الأسرة البابلية الأولى إحدى المعالم الهامة في التاريخ القديم وتقدم بشكل مأساوي بعض الشعوب التي لعبت أدواراً بارزة في تاريخ القرون التالية وفجأة وفي عام ١٥٩٥ق.م وهي السنة الثلاثين لحكم سامسو ديتانا Samsu-Ditana (١٦٢٥-١٥٩٥ق.م) وهو الملك الأخير في هذه الأسرة، ونرى أن مورسيليس الأول Mursilis وهو الحاكم الأول في الإمبراطورية الحثية قد اقتحم المنطقة وتوجه إلى سوريا بعد أن خرج من آسيا الصغرى (حيث استولى على حلب) ونهب ماري في طريقه. ولقد وصل هذا الغازي إلى بابل فنهبها وأحرقها وبعدها عاد إلى عاصمته فجأة كما كان أول ظهوره ولكنه كان متأخراً فلم يستطع القضاء على مؤامرات حدثت في البلاد الأمر الذي أدى إلى قتله والقضاء عليه. ولكن رحلته خلال بابل كانت طويلة وكافية لتمزيق وإيقاع الفوضى في نظام الحكم والإدارة هناك وهكذا فقد سقطت بابل فريسة سهلة أمام قطيع من الكاشيين الذين اندفعوا واكتسحوا المنطقة بعد انسحاب الحثيين، ونزلوا من الجبال في الشمال الشرقي.

وغني عن الذكر وصول الحثيين إلى آسيا الصغرى. فقد كان السكان الأوائل في آسيا الصغرى يعرفون الآن باسم الحاتيين ومن الاسم (حاتي) الذي أطلق على بلادهم وقد كان هؤلاء يتكلمون لهجات ليست هندو-أوروبية ولكن المتكلمين باللغة الهندو-أوروبية قد بدؤوا بالوصول إلى المنطقة في القرن الأول للألف الثاني ق.م. وتأتي الشواهد على ذلك من الوثائق حول المستعمرة الآشورية التجارية في كانيش حيث تشمل الأسماء الشخصية للأشخاص غير الآشوريين، كلمات ربما تفسر بأنها أسماء هندو-أوروبية. وقبل مجيء الحثيين الهندو-أوروبيين كانت البلاد مؤلفة من عشر من الممالك الصغيرة أو ما يقارب ذلك كانت مملكة (بوروش خاندة Burush-Khanda) هي ذات المرتبة الأولى ولكن لم تبق أية سجلات من الفترة

الحثية المعاصرة مع أنه وجدت سجلات متأخرة ربما اشتملت على تقاليد حثية حقيقية.

وبعد فترة الفوضى الناتجة عن تدخلات الغزاة الهندو-أوروبيين في منطقة هاليس Halys قام أحد أمرائهم ويدعى لابارناس Labarnas (بعد عام ١٧٠٠ق.م) بإنشاء مملكة لنفسه وقد وسع هذه المملكة عن طريق النجاحات العسكرية حتى وصل إلى البحر الذي اتخذه أحد حدود مملكته. ولقد عين بعض الأمراء من العائلة المالكة كحكام للمدن الرئيسية. وكانت عاصمة لابارناس مدينة تدعى (كوسارا) Kussara ولم يتم تحديد موقعها بعد ولكن ابنه نقل عاصمته إلى حاتوساس Hattusas وهي معقل من المعاقل في هاليس Halys وقد بدل اسمه باسم حاتوسيليس Hattusilis. ولدينا كمية من المعلومات بالنسبة للمنظمات الاجتماعية والبلاد في زمن حاتوسيليس الأول حوالي عام ١٦٥٠ق.م وذلك من تسجيل خطاب ألقاه ذلك الملك بمناسبة تبنيه وريثاً له وهو مورسيليس الأول. وهذا يدل أن مملكة الحثيين كانت في هذا الزمن مقيدة بطبقة منغلقة نبيلة حكمت شعباً مختلف الأعراق وكانت هذه الطبقة لوحدها مهتمة بالأنشطة العسكرية والإدارة المركزية للدولة. فقد كان الرجل العادي حراً ولكنه معرض للعمل بالسخرة وذلك لمصلحة الدولة.

ولقد توسعت مملكة الحثيين إلى الجنوب والشرق تحت حكم حاتوسيليس الأول وامتدت إلى مناطق في جبال طوروس حتى السهول الخصبة في شمال سوريا. وكانت (يامهاد) الدولة القوية المتمركزة في حلب قد ألجأت زمري ـ ليم ملك ماري عندما هرب من قبضة شمسي حدد وأصبح من حلفاء حمورابي في بابل ولكن هذا الملك اضطر أن يصبح تابعاً بشكل مؤقت لحاتوسيليس ولكنه استعاد استقلاله. أما مورسيليس الأول وهو وريث حاتوسيليس بالتبني فقد كرر مغامرات سلفه في سوريا، فقد عمل أخيراً على تدمير مدينة حلب. وبعد ذلك قام بتلك الغارة الشهيرة إلى أسفل نهر الفرات والتي انتهت بتخريب بابل والقضاء على أسرتها الأولى الملكية. ومع ذلك ورغم تلك المنجزات العسكرية المرموقة التي استطاعت الطبقة الحثية الحاكمة المنغلقة القيام بها. إلا أن منظمتها الاجتماعية كانت مفتقرة إلى

الاستقرار. ولقد عاد مورسيليس المنتصر بعد أن كان ولي العهد السابق قد قام بتمرد غير ناجح، لقد عاد هذا المنتصر حاملاً ما اكتسبه من النهب والسلب الذي أحرزه في بابل ولكنه تعرض لمؤامرة انتهت بقتله على يد صهره هانتيليس Hantilis .

لقد ترك تخريب الحثيين لبابل تلك البلاد مفتوحة ومعرضة لهجوم تلك القطعان من الكاشيين Cassites وكانوا عبارة عن مجموعة عرقية أتت من جبال زاغروس. ولقد وجد بعض الكاشيين بصفة أفراد في بابل أثناء القسم الأقدم من السلالة الأولى ولقد ذكرنا أن خليفة حمورابي قد اصطدم مع القوات العسكرية الكاشية إلى الشرق من الفرات. وابتداء من هذا الزمن فصاعداً بدأ الكاشيون بالاستقرار في شمال شرق بابل تحت حكم ملوكهم ولقد عمد أحدهم وهو (اغوم) الثاني AgumII إلى الاستقرار في بابل وحكمها كملك بعد أن تعرضت بابل للنهب على يد مورسيليس ولقد حاول هذا الملك أن يوسع سلطته حتى منتصف نهر الفرات إلى حدود مملكة حانا Hana وقد ادعى تملكه لغوتيوم Gutium الواقعة فوق التلال شرقي آشور.

وهكذا فقد انتهت منجزات حمورابي السياسية بعد نهب الحثيين لبابل وبعد غزو الكاشيين لها. ولكن الثقافة البابلية استمرت في ممارسة نفوذ واسع خلال الشرق الأدنى والأوسط ولم يتبنَّ الملوك الكاشيون لغة بابل وحروفها المسمارية فحسب، بل أصبحت اللهجات الأكادية ذائعة الاستعمال لأغراض رسمية خارج بابل وأشور. ولقد حدث اكتشاف في نهاية القرن الماضي على يد امرأة فلاحة في تل العمارنة في مصر وقد كشف عن بعض المراسلات الدبلوماسية التي حدثت حوالي عام ١٤٠٠ق.م ما بين ملوك مصر من جهة وأمراء مدن مختلفة في سوريا وفلسطين من جهة أخرى وكانت لغة هذه المراسلات أكادية مع مزج بعض الفقرات من اللغة الوطنية لكاتب المراسلات وهكذا اصبح من الواضح أن الأكادية كانت اللغة المعترف بها في المراسلات بين الأمم. وحتى وفي أوغاريت في سوريا، حيث استعملت لغة سامية متميزة وحيث وجد نظام هجائي من الكتابة المسمارية قد اخترع في

أوغاريت (وقد استعملت هذه الحروف في الأدب الكنعاني) فقد استعملت اللغة الأكادية إلى حد بعيد في النصوص القضائية.

وفي نفس الوقت الذي سقطت فيه بابل تحت حكم الكاشيين وقعت آشور وقسم كبير من منطقة الشرق الأدنى إلى الجنوب من المناطق الحثية وقعت هذه المناطق تحت نفوذ مجموعة عرقية وثقافية أخرى وهم الحوريون Hurrians. ولقد تكلم هؤلاء الحوريون لغة ليست بذات صلات معروفة ما عدا صلتها باللغة المتأخرة الآوراراتية* Urartian. يظهر أنهم قد وصلوا إلى الجبال الواقعة في شمال آشور من منطقة القفقاس في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م وذلك قبل فترة (اغادي). ويظهر نقشان من فترة اغادي أحدهما باللغة الأكادية والآخر بالحورية، أنه كان هناك مملكة حورية مركزها في مدينة اوركيش Urkish في منطقة نهر الخابور إلى الغرب من آشور وتعتبر هذه المملكة الحورية المنعزلة حالة خاصة نظراً لأن الوثائق التي وجدت في مدن أخرى مثل مدينة نوزي Nuzi وارابخا Arrapkha وتل براك Tell Brak تلك المدن التي كانت لاحقاً مراكز مرموقة للنفوذ الحوري، إنما تظهر في هذه الفترة المبكرة آثاراً بسيطة من العناصر الحورية في الأسماء الشخصية. ولقد كانت الهجرة إلى الجنوب جارية على قدم وساق خلال الأسرة الثالثة في أور وتظهر الوثائق في تلك الفترة نفوذاً حورياً شديداً في الأسماء الشخصية التي وجدت في الوثائق التي وجدت في دلبات Delbat وهذه ليست بعيدة عن بابل وهي تظهر وجود مستعمرة هناك. وفي بداية الألف الثاني تقدم الأسماء الشخصية شهادة على وجود الحوريين في منطقة واسعة ويمكن اقتفاء آثارهم في وثائق المستعمرة الآشورية في كابا دوكيا Cappadocia وتوجد أيضاً في نوزي Nuzi وارابخا في منطقة كركوك شرق آشور وفي مدن قطنا السورية وآلالاه Alalah وأوغاريت. ولقد وجد في ماري عدد من النصوص الطقوسية باللغة الحورية.

لقد واجه مورسيليس Mursilis الأول عند اجتياحه بابل بعض الأمراء الحوريين الأعداء في منطقة الفرات العليا. ولقد كان هؤلاء بعيدين عن المنطقة الرئيسية للقوة

* آرارات: جبل يقع في أرمينيا وتركيا.

الحورية التي كانت في منتصف الألف الثاني ق.م هي منطقة نهر الخابور. وبعد اغتيال مورسيليس نشأت الخلافات الأسرية التي ساهمت في إضعاف دولة الحثيين لعدة أجيال وفي هذا الزمن ظهرت دولة ميتاني Mitanni الهامة التي كان يشكل نواتها هؤلاء الحوريون.

ولقد امتدت هذه الدولة في أقصى مدى قوتها من بحيرة فان إلى منتصف نهر الفرات ومن جبال زاغروس إلى الساحل السوري.

ولقد حمل ملوك ميتاني أسماء هندوأوروبية وليس أسماء حورية بينما كان يعبد هؤلاء الآلهة الهندية القديمة مثل مترا Mitra وفارونا Varuna واندرا Indra والناساتياس Nasatias إذ أنه وفي الوثائق الحورية وخصوصاً المختصة بالخيول والشؤون الحربية توجد بعض الاصطلاحات التقنية التي لها أشكال قريبة في اللغة الهندو-آرية وأنه من المهم أن نعرف أنه وبعكس الشعوب القديمة في الشرق القديم الذين كانت عادة إحراق الجثث نادرة لديهم وكانت تعتبر أحياناً من الفظائع التي تفوق الموت نفسه، إلا أنه وبالنسبة للملوك الميتانيين كانت عادة إحراق الجثث هي الأسلوب المناسب للتخلص من أجسام الملوك الميتانيين القدماء ويشير كل هذا إلى وجود طائفة منغلقة آرية حربية تحكم سكاناً غير آريين وهناك بعض الشواهد من نفس النوع مع أنها أقل تفاوتاً وهي تشير إلى وجود عناصر هندوآرية في الطائفة الكاشية الحاكمة أيضاً.

تأتي معارفنا بصورة عامة حول دولة ميتاني من المحفوظات الدبلوماسية المصرية (وذلك على ألواح مسمارية) والتي وجدت في تل العمارنة في مصر، مع أن هذه تبدأ بعد عام ١٤٥٠ ق.م فحسب، ومن الواضح أنه وفي ذلك الزمن كان الحكام الميتانيون يمثلون سلالة معروفة، فهناك عدد من الأمراء الحوريين الذين يحملون أسماء آرية هم مذكورون في بعض النصوص التي تحتوي على قضايا خرافية وربما كان هؤلاء يمثلون الملوك الأوائل في أسرة ميتاني. وإن أول ملك من ملوك ميتاني نعرف عنه معرفة حقيقية هو باراتارنا Parattarna الذي ظهر تماماً بعد عام ١٥٠٠ ق.م كحاكم مملكة قوية تسيطر على دول تابعة لها في سوريا وفي مركز يضاهي

مركز مصر ومركز حاتي Hati وأما الحاكم الميتاني التالي فكان اسمه ساوساتار Saussatar وهو أحد معاصري الفرعون تحوتمس الثالث في مصر (١٤٩٠- ١٤٣٦ق.م) حيث حدثت بينهما علاقات دبلوماسية رغم أن تحوتمس وفي أثناء حملاته الكثيرة على سوريا قد وقع في حالات من الخصومة مع عدد من الحكام الحوريين الذين كانوا يدورون في فلك ونفوذ الميتانيين في الجنوب الغربي. ولقد قام خليفة ساو ساتار بتزويج ابنته للفرعون تحوتمس الرابع (١٤١٣-١٤٠٥ق.م) وبذلك فقد أنشأ علاقات مع مصر اشتملت على تحالف بين الدولتين، ولقد نشأت علاقات مشابهة من خلفاء الملكين وهما امينوفيس الثالث (١٤٠٥-١٣٦٧ق.م) وشاتورنا الثاني (كانت نهاية حكمه حوالي عام ١٣٩٠ق.م وتحت حكم هذين الملكين كانت ميتاني لا تزال تسيطر على آشور وقد استطاع أرتاتاما أن يستعين بإحدى الآلهة الأشورية وهي عشتار إلهة نينوى لزيادة نفوذه لدى البلاط المصري. ولقد عثر على رسالة إلى امينوفيس الثالث من حفيدارتاتاما وهو توشراتا يعلن فيها أن عشتار إلهة نينوى قد عبرت عن رغبتها في زيارة البلاط المصري مرة ثانية، وهذا يشير إلى زيارة سابقة لذلك التمثال في زمن أحد أسلاف توشراتا. ومن الواضح أنه كان للإلهة عشتار إلهة نينوى شهرة مرموقة عالمياً لابد وأنها ألقت بعض البريق والشهرة على حراسها.

وفي أثناء ذلك استطاعت الأسرة الكاشية في بابل أن توطد مركزها ونجحت في توحيد البلاد وحمايتها من ضغط أشور (التي كانت الآن تحت النفوذ الميتاني) ومن ضغط العيلاميين. وبالنسبة للسياسة الداخلية يبدو أن الحكومة الكاشية كانت طبقاً للوثائق الاقتصادية، حكومة معتدلة وغير ظالمة. وإن إحدى العوامل التي أثرت على ردود الفعل للدول - المدن القديمة بالنسبة للملك كانت موقف هذا الملك بالنسبة لحقوق المواطنين التي تشمل الإعفاء من الضرائب أو واجبات السخرة. ويدل أحد الصكوك التي أعلنها الملوك الكاشيون على أنهم كانوا حكاماً ليبراليين، وإن غياب ذكر الثورات المحلية ربما كان سببه هذه الليبرالية. ومن الأمور المساعدة في هذا الخصوص تفسير السهولة النسبية التي استطاع الكاشيون

أن يحلوا بها محل الأسرة البحرية. وابتداءً من السلالة الأولى في بابل حتى نهاية التاريخ البابلي فقد اعتمدت إمكانية حكم النصف الجنوبي لبابل على تعاون بضعة مدن هامة وخصوصاً ايريش وأور وتلك السياسة الاقتصادية والإدارية الناجحة للكاشيين ربما كانت قد أثرت على تلك المدن لتتعاطف معهم قبل محاولة القيام بأي انقلاب عسكري. ولقد عوملت هذه المدن الجنوبية باحترام من قبل الكاشيين الذين تعهد بعض ملوكهم بناء بعض المعابد هناك، ولقد تم الانتصار على الأراضي البحرية عن طريق علام بورياش Ulam-Buriash أثناء حكم كاشتيلياش الثالث Kashtiliash III أخوه الأكبر، ولقد نجح علام بورياش بعد أن خدم كنائب للملك في الأراضي البحرية، بالوصول إلى عرش الكاشيين حوالي عام ١٤٥٠ق.م وبهذا العمل استطاع إعادة توحيد بابل بعد انقسام دام حوالي مئتي عام، ولكن لم يلبث الخلاف والخصومة أن عادت مرة ثانية مما تطلب قيام الملك اغوم الثالث ابن ووريث علام بورياش بحمله ضد الأراضي البحرية.

وفي زمن كارا - انداش Kara-Indashوهو خليفة اغوم الثالث أصبحت بابل ذات قوة كافية لتضمن تبادل السفراء مع البلاط المصري بينما حدث تحالف وتصاهر عندما أرسلت إحدى الأميرات الكاشيات لتلتحق بحريم أمينوفيس الثالث.

لقد ذكر خلفاء كارا-انداش الثلاثة كما ذكر هو في رسائل تل العمارنة وكان الثاني من هؤلاء وهو كوريغالزو Kurigalze الأول هو أكثر ملوك الكاشيين أهمية. ولقد حافظ على العلاقات الطيبة مع امينوفيس الثالث وقد أصبح في مركز يخوله القيام بحملة ناجحة ضد عيلام. وقد كانت عيلام مرافقة تاريخياً لسومر وكانت دوماً وفي زمن ضعف بابل قادرة على الانهماك في قضايا بابل الجنوبية. ولهذا فقد استلم كوريغالزو زمام المبادرة وبقي محتفظاً بالسيطرة على تلك المنطقة حيث بدأ في ترميم المعابد وما شابه من الأعمال في ايريش وأور وايريدو. هذا وإن العمل الذي خلده لدى الأجيال القادمة هو بناء العاصمة الجديدة وتحصينها. وقد ظلت بقاياها في اكاركوف Aqarquf قرب بغداد وكانت الزقورة (انظر اللوحة ٤أ) إحدى المظاهر البارزة وإحدى المناظر الأساسية لدى أي سائح يزور العراق.

لقد كان كوريغالزو مديناً في القوة والمركز المرموق الذي أحرزه لدرجة ما إلى ضعف ميتاني المسبب عن مجموعة من الحوادث إذ إنه وبعد اغتيال مورسيليس الأول سمحت حالة الضعف السياسي والعسكري للحثيين للأمراء الحوريين أن يسيطروا على قسم كبير من سوريا الشمالية ومن حيث كانت تحدث الغارات على الأراضي الحثية، ثم ظهرت مملكة ميتاني التي كانت في حالة تحالف مع مصر، والتي استطاعت السيطرة على بعض المناطق الحثية الحدودوية. ولكن هذه الحالة انتهت باعتلاء ذلك الحاكم المتحمس القادر وهو شوبي لوليما Shuppi-Luliuma العرش حوالي عام ١٣٧٥ق.م والذي توافق بدء حكمه مع أزمة الميتانين بالنسبة لوراثة العرش وعند موت شوتارنا الثاني Shuttarna II (حوالي عام ١٣٩٠ق.م) ابن وخليفة ارتاتاما الذي كانت له علاقات وثيقة مع مصر كوالده انقسمت المملكة بسبب الحرب الأهلية واغتيل الوريث على يد بعض الجماعات المناهضة لمصر. أما الولد الثاني وهو توشراتا فقد استطاع تدبير أموره وأن يثبت نفسه ملكاً لميتاني ولكن انفصلت عنه الأراضي الحورية القديمة إلى الجنوب من بحيرة فان وشكلت مملكة مستقلة تحت حكم أخ توشراتا الأصغر ويدعى ارتاتاما أيضاً. ولقد استقبل ارتاتاما الدعم من شوبي لوليا عندما قام بغزوة غير ناجحة لأراضي ميتاني الأصلية، بينما أحيا توشراتا Tushratta الحلف القديم مع مصر ولسوء حظ ميتاني فإن الخصومات الدينية التي استفحلت في مصر أثناء حكم اخناتون (١٣٦٧- ١٣٥٠) كانت هذه الخصومات تفعل فعلها في انحراف الاهتمام الملكي عن الشؤون الخارجية إذ يبدو أن توشراتا لم يستطع أن يحصل على أي تأييد مصري أثناء مجرى الحوادث التي تلت.

وهكذا بدأت الحرب ما بين توشراتا وشوبي لوليما الذي غزا شمال سوريا واستطاع كسب السيطرة على عدد من الدول الحثية في سوريا التي كانت سابقاً خاضعة لميتاني أو مصر، ومن الغريب أن أرض ميتاني لم تهاجم بشكل مباشر من قبل شوبي لوليما ولقد اقترح أن هذه القضية كانت قضية سياسية أملتها الرغبة باجتناب العمل الذي كان من الممكن أن يوحد الأمراء الحوريين ليصبحوا إلى جانب

ميتاني، وبعد حكم مملوء بالاضطرابات والذي في نهايته حكم أغلب الأراضي التي فقد السيطرة عليها غربي الفرات اغتيل توشراتا (حوالي عام ١٣٥٠ق.م) على يد ولده الذي كان يعمل مع الفريق الموالي لأرتاتاما والذي ادعى الحق في ملكية ميتاني ولكن أحد أبناء توشراتا الصغار وهو ماتي - وازا Matti-Waza استطاع الهرب وبعد محاولة مجهضة لتأمين لجوئه إلى بابل، عاد وهَرَب ليلقي بنفسه تحت رحمة شوبي - لوليما الذي كان في مركز قوي ولكنه محرج وذلك بوجود الوريث الشرعي لعرش ميتاني والوريث المغتصب كليهما في حالة اعتماد عليه.

لقد كان المستفيد من الاضطرابات التي وقعت في ميتاني هو آشور. فقد مضى حين من الدهر كانت آشور تابعة لميتاني ولكن الحوادث التي حدثت في ميتاني سمحت لآشور أن تستعيد شيئاً من استقلالها. إذ بعد أن استأنف بورنا بورياش الثاني Burna-Buriash II وهو الوريث الثاني لكورغالزوا على عرش بابل، علاقاته مع مصر التي كانت على وشك الاضمحلال فقد شكا هذا وتذمر عندما أرسل أشور - اوباليت الأول Ashur-Uballit I ملك آشور سفيراً إله إلى البلاط المصري واستقبل هذا السفير هناك فقد كان هذا العمل يعني شيئين. أولاً إن آشور قد بدأت بالانبعاث والقوة كدولة ذات أهمية عالمية، وثانياً، إن بابل كانت تحاول دون إحراز أي قسط من النجاح أن تحل محل ميتاني في السيادة على آشور. ومع ذلك فعلينا أن نقبل بانبعاث قوة آشور ونشوء تحالف ما بين مملكتي آشور وبابل والذي تم تحقيقه من خلال اقتران كارا – انداش الثاني ابن وريث عهد بورنا – بورياش الثاني بابنة آشور - اوباليت. وهكذا أصبحت آشور قوة لا يُستهان بها. وربما كان اعتراف (شوبي لوليما) بحاجته إلى حاجز ومصدٌ يعتمد عليه ضد هذه الدولة الناشئة التي استيقظت من جديد الأمر الذي أدى به أخيراً إلى أن يساعد ماتي - وازا Mattiwasa وهو الوريث الشرعي لتوشراتا Tushrata الذي كان قد غمس يديه في الماء البارد في بلاطه لمدة عشر سنوات أملاً أن يستعيد بقوة السلاح عرش ميتاني التي قد تناقص قدرها وأهميتها بعد خسارتها كركميش التي ضمّها نائب الملك الحي إلى ملكه.

لقد عرفنا ثلاثة من الأمراء الحوريين في ميتاني (في وضعها المتواضع الآن عرفت باسم هاني - غالبات Hanigalbat) ولكن لقد زالت أيام وعظمة ميتاني، فقد هزم شاتوارا الأول Shattuara I وأصبح تابعاً لأداد - نراري الأول Adad-Nirari (١٣٠٧- ١٢٧٥) بينما ثار وريثه ولكنه هزم من جديد وهكذا انتهى وجود مملكة هاني غالبات وهي ميتاني القديمة وأصبحت إحدى الولايات الآشورية عندما هزم شلمناصر الأول Shalmaneser I آخر ملك من ملوكها وهو شاتوارا Shattuara الثاني وهذا الانتصار كان ذا اهمية اجتماعية خاصة وذلك أنه قد هجر حوالي ١٤٠٠٠ أسير. وهذا العمل يظهر سياسة التهجير التي اتبعتها الإمبراطورية الآشورية بشكل واسع فيما بعد.